استراتيجيتان للحركة ..
مناهضة العولمة أو السعى من أجل عولمة بديلة

مايكل هارت

فضلاً عن أن المنتدى الاجتماعى العالمى فى بورتو اليجيرى يعارض المنتدى الاقتصادى العالمى فى نيويورك ، فإنه أيضاً يبدو من سلالة مؤتمر «باندونغ» التاريخى الذى عقد فى أندونيسيا عام ١٩٥٥ . فكلاهما يعتبر محاولة لمناهضة النظام العالمى المهيمن : الاستعمار وثقل وطأة الحرب الباردة بين القطبين العالمين فى حالة «باندونغ» ، وسطوة العولمة الرأسمالية فى حالة «بورتو اليجيرى» علاوة عن ذلك ، تبدو الاختلافات واضحة . فمن ناحية كشف مؤتمر «باندونغ» ، الذى قدم قيادات من آسيا وأفريقيا أساساً . كشف بأسلوب دراماتيكى عن البعد العنصرى للاستعمار وللنظام العالمى للحرب الباردة ، الذى وصفه «ريتشارد رايت» بأنه نظام منقسم على نفسه بفواصل واضحة . فى المقابل ، كانت «بورتو اليجيرى» حدثا مبهراً إلى أقصى حد . كان هناك القليل من المشاركين من آسيا وأفريقيا ، كما كان التنوع العرقى للأمريكيين أقل حضوراً بشكل دراماتيكى . يشير ذلك إلى استمرار مهمة شاقة يواجهها المجتمعون فى «بورتو اليجيرى» : تعولم الحركات إلى أبعد مدى ، سواء فى داخل كل مجتمع أو على النطاق العالمى ، وهو المشروع الذى يعد المنتدى مجرد خطوة أولى فيه . من ناحية أخرى ، بينما كانت «باندونغ» يقودها جماعة محدودة من القيادات السياسية القومية والمحافظة ، فإن «بورتو اليجيرى» تكتظ بالحشود الجماهيرية وشبكات الحركات المدنية . هذه الوفرة من الأبطال والفاعلين هى الإبداع الكبير وغير المألوف للمنتدى الاجتماعى العالمى ، والمحور المركزى للأمل الذى تقدمه من أجل المستقبل .

كان الانطباع الأول والمسيطر للمنتدى هو ضخامة حشودة . لم يقل عدد المشاركين عن ٨٠ ألفا على حد قول المنظمين ، كما كانت الأحداث والملتقيات أكثر وفرة وتنوعاً . البرنامج الذى احتوى على كل المؤتمرات ، والندوات ، وورش العمل الرسمية التى عقدت فى الجامعة الكاثوليكية ، كان فى حجم الصحيفة «التابلويد» ، لكن المرء أدرك فى حينه أنه كانت هناك اجتماعات أخرى غير رسمية لا يمكن حصرها تعقد فى كل أنحاء المدينة ، أعلن عن بعضها فى ملصقات أو وريقات ، وبعضها الآخر أعلن عنه شفويا . كذلك كانت هناك تجمعات مستقلة للجماعات المختلفة المشاركة فى المنتدى ، مثل اجتماع الحركات الاجتماعية الإيطالية أو اجتماع الأقسام الوطنية المختلفة «لأتاك» ATTAC . هذا بالإضافة

للتظاهرات : سواء المسيرات الرسمية ، مثل موكب الافتتاح الجماهيرى الحاشد على شاكلة الاحتفال بأول مايو ، أو التظاهرات الأصغر وذات الطابع الصراعى ، مثل المظاهرات ضد أعضاء البرلمانات من مختلف البلدان ، المشاركين فى المنتدى ، الذين صوتوا مع الحرب ضد الإرهاب . فى النهاية . تمت سلسلة أخرى من الفعاليات فى المعسكر الضخم للشباب ، الذى ضم ساحات ومخيمات لسكن ١٥ ألف مشارك فى جو يذكر بمهرجان صيفى للموسيقى ، خاصة عندما سقطت الأمطار وراح كل شخص يخوض فى الوحل مرتدياً كيساً من البلاستيك كبديل لبالطو المطر ، باختصار إذا حاول أى شخص متابعة كل ما يحدث فى «بورتو اليجيرى» فسوف تفشل محاولاته تماماً . كان المنتدى بالغ الاتساع والتنوع بشكل لا يمكن إدراك حدوده أو أبعاده أو معرفة كل ما يحدث فيه . كما أن غزارة البشر والأحداث ولدت انبهاراً وبهجة لدى كل مشارك ، وجد المرء نفسه فى بحر من البشر من مناطق كثيرة جداً من العالم ، يناضلون ضد الشكل الراهن من العولمة الرأسمالية .

كان هذا اللقاء المفتوح أكثر العناصر أهمية فى «بورتو اليجيرى» على الرغم من ذلك . كان المنتدى قاصراً على بعض الصلات المجتمعية والجغرافية ، بينما أغفل علاقات مجتمعية وجغرافية هامة ، بمعنى آخر أنه بالرغم من أن فرصة تشكل عولمة مختلفة من خلال دورة الصراعات التى امتدت من سياتل إلى جنوة ، التى قادتها شبكة من الحركات ، كانت حتى ذلك الحين محصورة وقاصرة على شمال الأطلنطى بشكل عام ، وكانت تتعامل مع نفس القضايا . وكان أولئك الذين يناضلون ضد الشكل الراهن للعولمة الرأسمالية ، أو ضد سياسات مؤسساتية محددة مثل سياسات صندوق النقد الدولى ، كان أولئك المناضلون أيضاً ما زال نضالهم قاصراً على صلات مجتمعية وجغرافية محدودة فى الواقع ، كان اعتراف الجميع فى خططهم ومشاريعهم بهذه الحقيقة ، هو الخطوة الأولى لمد شبكة الحركات ، أو ربط إحدى الشبكات بأخرى ، كان هذا الاعتراف هو المسئول الأساسى عن إشاعة جو السعادة والنشوة الاحتفالية فى المنتدى .

علاوة على ذلك ، فإن المواجهة لا تكشف ولا تحدد فقط الأهداف والآمال العامة ، لكنها تظهر أيضاً الاختلافات والتنويعات المتباينة لأولئك المختلفين فى الظروف المادية والتوجيهات السياسية .

لا يمكن للحركات المتنوعة فى كل أرجاء العالم أن تتصل ببعضها ببساطة على نحو ما تفعل ، بل يجب أن يتم هذا الاتصال فيما بينها على نحو أفضل من خلال اللقاء لتبادل الآراء والخبرات على نحو ملائم . على سبيل المثال ، هؤلاء القادمون من أمريكا الشمالية ومن أوروبا لن يستطيعوا فرض خبراتهم ولا إلغاء

الاختلاف الواضح بين خبراتهم وخبرات العمال الزراعيين وفقراء الريف فى البرازيل، الممثلة بوضوح فى «حركة الفلاحين المعدمين الذين لا يملكون أرض» . أى نوع هذا من تبادل الخبرات والتجارب بين الحركات الأورو – أمريكية وبين حركات أمريكا اللاتينية لمناهضة العولمة حتى يمكن أن يقيما معاً شبكة مشتركة واحدة ؟. قدم المنتدى فرصة للتعرف على هذه الاختلافات والقضايا والإشكاليات لأولئك الراغبين فى التعرف عليها ، لكن دون أن يفرض طرف شروطاً على الآخر أو أن يوجهه فى الحقيقة ، أن طبيعة المنتدى المفرطة فى التنوع خلقت حالة عامة من الابتهاج والغبطة . نحت تماماً هذه الاختلافات والصراعات فلم يكن المناخ يسمح بالمواجهات .

معاداة الرأسمالية والسيادة القومية :

كان «منتدى بورتو اليجيرى» غارقا فى هذه المشاعر والأحاسيس ، قد تكون أحاسيس بالسعادة البالغة ، والاحتفالية الضخمة ، ولم يكن هناك مجال مناسب للصراعات والنزاعات . أكثر الخلافات السياسية الهامة التى اجتاحت المنتدى بشكل كامل كانت تتعلق بدور السيطرة القومية . فى الواقع هناك موقفان أساسيان فى الرد على القوة المهيمنة اليوم على العولمة : أحدهما يعمل على تعزيز هيمنة الدول القومية كحواجز دفاعية ضد سيطرة رأس المال الأجنبى والكوكبى ، والموقف الثانى يكافح من أجل بديل غير قومى لخلق شكل من العولمة ينعم فيه العالم كله بالمساواة. يزعم الموقف الأول أن الليبرالية الجديدة مقولة تحليلية أساسية ، ترى العدو باعتباره النشاط الرأسمالى الكوكبى الذى لا تحده قيود ويضعف سيطرة الدولة ، أما الموقف الثانى يقف بوضوح أكثر ضد الرأسمالية نفسها ، سواء كانت هذه الرأسمالية تضبطها الدولة أولاً تضبطها . قد يدعى أصحاب الموقف الأول بحق أن الموقف ضد العولمة ، حتى ولو كان مرتبطا بتضامن دولى ، فإنه يخدم السلطات القومية ، بقدر ما ينجح فى تحديد وتقييد وضبط قوى العولمة الرأسمالية . وبالتالى ، يبقى التحرر القومى من هيمنة العولمة الرأسمالية هدفاً أساسياً بالنسبة لهذا الموقف ، كما كان هدفا للنضالات ضد الاستعمار القديم والإمبريالية .

فى المقابل ، فإن الموقف الثانى يعارض أية حلول قومية ويبحث عن سبيل آخر من أجل العولمة الديمقراطية .

احتل الموقف الأول مجالات أكثر وضوحاً وهيمنة فى منتدى بورتو اليجيرى ، وكان ممثلا فى الجلسات الواسعة ، وعبر عن نفسه كثيراً فى كلمات المتحدثين الرسميين باسم الشعوب ، وفى التقارير الصحفية كان الراعى الأساسى لهذا الموقف هو قيادة «حزب العمال البرازيلى» الذى استضاف المنتدى ، منذ تولى حكم المدينة وشكل حكومة الإقليم الذى تقع فيه مدينة بورتو اليجيرى ، كان من الواضح بل وما

لا يمكن تجنبه ، أن يحتل «حزب العمال البرازيلى» مكانة مركزية فى المنتدى ، وأن يستغل الاعتبار والاحترام الدولى الذى حظى به المنتدى كجزء من حملته الاستراتيجية من أجل الانتخابات القادمة . كانت القيادة الفرنسية لمنظمة «أتاك» ATTAC ثانى الأصوات السائدة والمهيمنة دفاعا عن السيادة الوطنية ، التى نشرت أعمال المنتدى على صفحات «الموند دبلوماتيك» . فى هذا الإطار ، فإن قيادة «أتاك» (ATTAC) على علاقة وثيقة بالعديد من السياسيين الفرنسيين ، أكثرهم عجزاً «جان بيير تشيفمنت» ، الذى يدافع عن تعزيز هيمنة الدولة القومية كحل للآثار السيئة للعولمة المعاصرة . على أية حال ، فإن هذه الشخصيات هى التى هيمنت وسادت التمثيل فى المنتدى سواء فى داخله أو فى التقارير الصحفية التى نشرت عنه فى المقابل ، كان الموقف غير السائد ، الموقف الداعى لعولمة بديلة ، كان يشكل الأقلية فى المنتدى ، ليس بالمعنى الكمى ، ولكن بالمعنى التمثيلى ، ففى الحقيقة كان غالبية المشاركين فى المنتدى يتخذون موقف هذه الأقلية أولاً لأن الحركات المتنوعة التى قادت الاحتجاجات من «سياتل» إلى «جنوة» اتجهت بشكل عام نحو حلولا غير قومية .

والواقع أن البنية المركزية لحالة الهيمنة ذاتها تتناقض مع شكل الشبكة أو البنية الأفقية الذى تنمو به هذه الحركات . ثانيا ، أن الحركات الأرجنتينية التى تنطلق فى مواجهة الأزمة المالية الراهنة ، منظمة فى جمعيات نيابية على نطاق المدينة وما يجاورها ، وتتناقض مع أطروحات الهيمنة القومية . وتدعو شعاراتهم جميعا للتخلص من الطبقة السياسية برمتها . وأخيراً انطلاقاً من أن ميل الأحزاب والمنظمات المتنوعة التى حضرت المنتدى وتشكل قاعدته أكثر عداء لإطروحات هيمنة الدولة القومية من ميل القيادة فى المنتدى . قد ينطبق ذلك بشكل خاص على «أتاك» ATTAC المنظمة الهجين التى تقود الحركة بشكل خاص فى فرنسا ، وتختلط بالسياسيين التقليديين ، لكن أقدامها تقف على أرض ثابتة داخل الحركات .

ليس من المستحسن فهم الإنقسام بين الموقف المناهض للعولمة من أجل تعزيز السيادة القومية وبين الموقف الداعى لعولمة بديلة ، والمناهض فى الوقت نفسه للهمنة القومية ، ليس من المستحسن فهم هذا الانقسام على أساس جغرافى . فهى ليست إنقسامات بين الشمال والجنوب ، ولا هى انقسامات بين العالم الأول والعالم الثالث . بل بالأحرى هى صراعات متبادلة بين شكلين مختلفين من التنظيم السياسى . حيث تحتل الأحزاب التقليدية والحملات المركزية بشكل عام القطب المدافع عن الهيمنة القومية ، بينما تتجمع الحركات الجديدة المنظمة فى شبكات أفقية فى القطب المناهض للهيمنة . علاوة على ذلك ، ففى داخل المنظمات التقليدية والمركزية، تتجه

القيادة نحو الهيمنة القومى ، بينما تتجه القاعدة فى الاتجاه المضاد . قد لا يثير الدهشة ، أن أولئك الذين فى مواقع السلطة أكثر ولوعا بهيمنة الدولة ، بينما الآخرين البعيدين عن مواقع السلطة لهم موقف آخر .

على أية حال ، قد يساعد ذلك على تفسير كيف أن الموقف المدافع عن السيادة القومية والمضاد للعولمة يسيطر على ممثلى المنتدى ، على الرغم من أن غالبية المشاركين أكثر ميلاً باتجاه عولمة بيلة لا تقوم على أسس قومية .

كمثال واقعى ملموس لهذا الخلاف السياسى والأيديولوجى ، يمكن للمرء أن يتصور الاستجابات المختلفة للأزمة الاقتصادية الراهنة فى الأرجنتين التى سيتبعها أصحاب كل موقف من الموقفين طبقاً لمنطقه الفكرى . الحقيقة أن الأزمة ألقت بظلالها على المنتدى بشكل واضح ، مثل التحذيرات من سلسلة من كوارث اقتصادية قادمة . يشير أصحاب الموقف الأول إلى حقيقة أن الانهيار الأرجنتينى كان بسبب قوى رأس المال العالمى وسياسات صندوق النقد الدولى ، بالتوافق مع المؤسسات فوق القومية التى تقوض سيادة الدولة القومية . وبالتالى فإن ذلك يستدعى تعزيز سيادة الدولة القومية فى الأرجنتين (والدول الأخرى) ضد هذه القوى الخارجية التى كانت السبب فى عدم الاستقرار فى البلاد . أما الموقف الثانى فإنه سيتفق مع الموقف الأول فى تحديد أسباب الأزمة ، لكن سيؤكد أن أى حل قومى غير ممكن وغير مرغوب فيه . ولن يكون هناك بديل لسيطرة رأس المال الكوكبى ومؤسساته إلا بتحقيق المساواة على مستوى الكوكب ، من خلال حركة ديمقراطية كوكبية . اليوم تتم تجارب عملية فى الديمقراطية فى الأرجنتين على نطاق المدن والأحياء ، وتطرح على سبيل المثال قضية التواصل الضرورى بين مقرطة الأرجنتين ومقرطة النظام الكوكبى .

بالطبع . فإن هذه الرؤى لا تقدم وصفة ناجزة لحل عاجل للأزمة ؛ وصفة تطوق روشتات صندوق النقد الدولى وتنقلب عليها ، ولا أعتقد أن هذا الحل موجود فى الواقع ليس لديهم فى الوقت الراهن سوى استراتيجيات سياسية مختلفة من أجل عمل حالى يبحث مع الوقت عن تطوير بدائل حقيقية تحل محل الشكل الراهن من السيطرة الكوكبية .

فى فترة سابقة ، شاهدنا مواجهات أيديولوجية قديمة بين الموقفين . اتهم فيها أصحاب الموقف الأول ، أصحاب الموقف الثانى بأنهم لعبة فى يد الليبرالية الجديدة ، لتقويض سيادة الدولة القومية ، وتمهيد السبيل لعولمة أخرى . ويرد أصحاب الموقف الثانى بأن الأنظمة القومية والأشكال الأخرى لسيادة الدولة ، فاسدة وقمعية ، وتقف عائقا أمام الديمقراطية الكوكبية التى ننشدها . لكن هذا النوع من المواجهات لم

يحدث فى «بورتو اليجرى» نتيجة للطبيعة الكرنفالية للحدث ، التى جنبت الصراعات، وبسبب جزئى آخر ، وهو أن أصحاب الموقف المدافع عن سيادة الدولة القومية أحرزوا نجاحاً بالغاً فى احتلال مواقع مركزية فى المنتدى وتمكنوا من جعل أى محاولة لإثارة الخلافات آمراً مستحيلاً .

لكن السبب الأكثر أهمية فى عدم المجابهة ، هو الأشكال التنظيمة التى يعمل وفقاً لها كل موقف من الموقفين . فالأحزاب التقليدية والمنظمات المركزية لديها متحدثين يمثلونها ويخضون معاركها ، لكن لا أحد يتحدث باسم أى شبكة . كيف تتجادل مع شبكة ؟ الحركات المنظمة فى داخل الشبكات تمارس نفوذها فيها ، لكنها لا تمارس خلافاتها من خلالها أو فى داخلها . أحد السمات الأساسية للشبكة ، أى شبكة ، أن أى طرفين متناقضين أو مختلفين لا يواجه أى منهما الآخر ، بل عادة ما يهمشون تناقضهم بوجود طرف ثالث ، أو رابع ، أو بأعداد غير محدودة من الأطراف الأخرى فى الشبكة . بدى ذلك أحد السمات لأحداث «سياتل» التى أثارت لدينا الكثيرون من عدم الفهم والإلتباس : جماعات نعتبرها متناقضة موضوعيا ، من البيئيين ، والنقابات العمالية ، وجماعات الكنائس ، والفوضويين ، ونجدهم فجأة قادرين على العمل معاً ، فى إطار الشبكة المتعددة الأطراف . نظراً لأن الحركات تأوى وجهات نظر مختلفة ، فإنها تقوم بأعمال فى مجال النشاط العام ، على أمل أنها قد تتمكن من التعبير بشكل كامل عن الاختلافات الموجودة فى مناخ عام من المناقشات المفتوحة . لكن ذلك لا يعنى أن الشبكات بلا فاعلية أو أنها سلبية . بل تعزل الخلافات وتتحاشى التناقضات من أجل عمل نفيس تقوم به ، أو لنقل أنها مثل موج البحر ، حيث يؤدى تدفق الحركات إلى تغيير المواقف التقليدية الثابتة ، وتفرض الشبكات نفوذها ومنطقها من خلال نوع من التيار القوى لا يمكن مقاومته .

هكذا كان الحال فى المنتدى نفسه ، يفيض بعدد وافر من الحركات بشكل مفرط ويتعذر إدراكه ، لذلك فهو أمر بالغ الأهمية ، لمعرفة الاختلافات التى تقسم النشطاء وحشود السياسيين فى «بورتو اليجرى» . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، يكون من الخطأ محاولة قراءة هذا الانقسام على ضوء النموذج التقليدى للصراع الأيديولوجى بين الأطراف المتعارضة . حيث لم يعد الصراع السياسى فى زمن شبكات الحركات يعمل بنفس الطريقة التقليدية . على الرغم من نزعة أولئك الذين احتلوا موقعاً مركزياً وتسيدوا هيئات المنتدى إلى تأكيد تمييع الصراع ، إلا أنهم اكتشفوا فى النهاية أنهم قد يكونوا خسروا الصراع . قد يكون ممثلو الأحزاب التقليدية والمنظمات المركزية فى «بورتو اليجرى» مشابهين إلى حد كبير للقيادات

القومية القديمة التى احتشدت فى باندونج ، «لولا» عن حزب العمال البرازيلى فى موقع «أحمد سوكارنو» باعتباره المضيف ، و «برنارد كاسين» من منظمة «أتاك» الفرنسية مثله مثل «جواهر لال نهرو» وكذلك حال غالبية الضيوف المحترمين .

لا شك فى أن القيادات تمكنوا بدهاء ومكر من طرح وتأكيد أطروحات وحلول لتعزيز سيادة الدولة القومية ، لكنهم على الإطلاق لم يتمكنوا من حصار النفوذ الديمقراطى للحركات . فى النهاية ، سوف تكتسحهم التعددية الغامرة ، القادرة على تغيير كل العناصر الراسخة والمركزية وتحويلها إلى كتل صلبة ومتعثرة فى شبكة ممتدة ولا نهائية .

النص الأصلى للمقال بالإنجليزية نشر فى مجلة NEW LEFT REVIEW

عدد مارس – إبريل ٢٠٠٢

PORTO ALEGRE : TODAY'S BANDUNG ?